التيار الشكلي

أحسب أن الذى أضر بدراسة القصة العربية بل بدراسة النثر العربى كله هو ذلك الفهم الذى واجه به الدارسون تراثنا النثرى .. وهو فهم يقوم على أساس البحث عن صورة معينة من النثر تكثر فيها الصنعة ، وتظهر فيها مجالات التلاعب البلاغى والقدرة على الرصف والتنميق الشكلى .. وكان من نتيجة هذه النظرة أن انصرف جهد الباحثين الى التنقيب عن بغيتهم فوجدوها فى الجاهلية فى السجع والخطابة ، ووجدوها فى صدر الاسلام فى الخطابة والرسائل .. ورفض الباحثون جميعا غير هذا من الصور النثرية .. ولكنهم أحسوا أن هذا الذى ارتضوه يكاد يبدأ بدايته الحقيقية منذ العصر الاموى ، وأن الصور الاخرى التى جاءتهم عما سبقه من عصور لا تكفى بل تكاد لا تثبت صحتها للناقد الخبير ، فشاءوا أن يخرجوا من المعركة كلها حين أعلنوا أن النثر الجاهلى ضاع ، وأن ما جاء عن عصر صدر الاسلام فيه شك كبير وأن الكتابة بدأت بعبد الحميد ..

وهذا الذى نقلوه عن عبد الحميد يمثل ما ارتضوه من صور النثر ، بل ويمثل فهمهم للنثر الفنى ومهمته ، فعبد الحميد

كما يقول الدكتور شوقى ضيف فى (الفن ومذاهبه فى النثر العربى) « كان بليغا وقد ضربت ببلاغته الامثال » فاذا بحثت عن سر بلاغتـــه وجدتها الترسل والترادف والحال .. وكلها كما ترى خصائص شكلية اعجبوا بهـــا لسبب أو لآخر فحملوها وحملوا الناس عليها حملا ..

ونحن نريد أن نبحث عن السر فى هذا التيار الشكلى الذى أملى على دارسى فن العرب القولى اتجاههم ونظرتهم ..

التاريخ يقول ان الموالى قفزوا الى الصفـــوف الاولى فى الحياة الثقافية منذ الدولة الاموية فما نكاد نصـــل الى عصر هشام بن عبد الملك حتى نرى على رأس ديوانه سالما مولاه ، ويأتى بعده تلميـــذه عبد الحميد وهو مولى أيضـــا ، وعلى يد هؤلاء وأيدى غيرهم من غير أبناء العربية الاول بدأ عصر الشكل والاهتمام به .. وطبيعى لانسان يتعلم لغة جديدة أن يلجأ الى الزينة والحلية اما لاظهار تفوقه على أهل اللغة الاصليين وأثبات علمه بأسرار لغتهم ، أو لعدم احساس حقيقى بالروح الكامنة فى اللفظ فى حد ذاته من حيث كونه شحنة دلالات متـــوارثة ، يغنى حين يورده الكاتب عن كل محاولات الصنعة الاسلوبية فى الابانة عن معناه ودلالته النفسية . بل انك حين تتعمق درس هذه الصور البلاغية التى أتوا بها تحس فيها أن للفظ دلالته الموسيقية والنغمية كما له دلالتـــه القاموسية ، ولـــكنه وسط الرصف والحيل البيانية يكاد يفقـــد دلالته النفسية المتوارثة ،

ويكاد يحل كل لفظ محل اخيه ما دام مساويا له فى المعنى دون ما اهتمام بشحنته العاطفية .. وقد كان من سمات عبد الحميد الترادف ، ومعنى الترادف ببساطة أن الكلمة تخلى من كل شحناتها المتوارثة لتغدو قالب طوب يرص الى جوار غيره من القوالب ويساويها ليخرج بناء هندسيا جميلا فى شكله ، فقيرا الفقر كله فى الدلالات النفسية ..

واللغة العربية تكاد تقف وحدها فى كثرة ما فيها من مترادفات ، والدراسات الادبية المحدثة تحاول أن تنفى هذه الظاهرة التى تقضى على قيمة اللغة الأدبية من حيث قيمتها فى الاستعمال فى الابانة عن نفسية قائلها وأحاسيسه ..

وسجع الكهان الذى عرف فى الجاهلية ضرب من الشعوذة اللفظية كما قلنا من قبل ، وهو ليس فنا وليس أدبا ، وانما هو عبث يعتمد على الجرس اللفظى . وأحسب أن هذا هو السر فيما تنقله الينا كتب السيرة والاخبار من أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عنه ، وان صحابته امتنعوا عنه بل ورفضوه رفضا قاطعا .. وليس هذا الا لأنه تزوير عقلى ، ولهد بلا دلالة حقيقية .. ولكن السجع يعود بصورة خطيرة فى العصور التالية ، وتعود معه قيود شكلية جديدة .. ونجد الدارسين القدماء والمعاصرين جميعا يقبلون كل هذا فى رضاء ، ويقيمون أبحاثهم على أساس دراسة المهارة الشكلية عند الكتاب ، بل ويرفعون بعضهم درجة ويخفضون غيرهم درجات بحسب مقدار

ما يظهر فى أعمالهم من مهارات حرفية .. بل يقـول الدكتور شوقى ضيف فى كتابه السالف متسائلا « ولـكن هل وجدت الكتابة الفنية التى يعتمد فيها الكاتب على التحبير والتنميق ، وان يذيعها فى الناس كما يذيع الموسيقار أو المصور أثره الفنى ؟ أما ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا نلمح فيه أثرا من هذا الجهد الفنى الذى يريده الفنانون لآثارهم » .

واحسب أن هذه العبارة كافية للدلالة على ما نريد .. والدكتور شوقى يتبعها بعدة نصوص من كتابات النبى ليثبت أنها لا تعرف ما أسماه بالتنميق والتحبير .. وهذا فى حد ذاته دليل على ما نقول من أن هذا الجهد اللغوى لا ينبعث عن فطرة سليمة وقدرة حقيقية وانما هو وليد رغبة فى اظهار المهـارة العقلية وسعة الاطلاع اللغـوى مما لم يكن العرب — وأولهم النبى — فى حاجة الى اثباته ، انما الذين احتـاجوا اليـه هم الاغراب الذين دخلوا حياة العرب واستعملوا لغتهم ..

والكتاب النـابهون عند الدراسين تجـدهم جميعا كتابا رسميين يعملون فى الدواوين ويؤجرون على ما يكتبون ، بل ان ما يكتبون انما يلقى اليهم من الخليفة أو الوزير القاء ، وعليهم أن يصـوغوه مثل هـذه الصياغات التى أسـماها الدارسون بالبلاغة .. وما كانوا يستطيعون أن يلوا مناصبهم ويصبحوا موظفين فالديوان الا اذا اظهروا تفننا وابتكارا (وبلاغة وبيانا)..

فهؤلاء اذن هم خالقو هذا اللون من الكتابة الذى شغل

دارسى النثر حتى صرفهم عن غيره .. والذى جعل من الصورة التى ينقلونها الينا للنثر العربى صورة شوهاء بلا دلالة انسانية ولا غناء فنى حقيقى ..

التـــــدوين

ولسنا حين نرفض هذه الصورة كلها مغالين او متجنين بل نحن نسير مع منطق التـــاريخ والحضارة . فليس العرب كأمة وكشعب أقل من غيرهم من الامم والشعوب حاجة فى الابانة عن نفوسهم بلون من ألوان الفن .. وخاصة اذا كان هذا الفن موجودا بالفعل عرفوه فى جاهليتهم وفى اسلامهم بصورة واضحة جلية وان أهملها الدارسون ..

فالدكتور شوقى ضيف يقرر فى موضع من كتابه أن الكتابة التاريخية قد فقد أكثرها الا ما بقى من روايات فى الطبرى وابن هشام وابن اسحق ، وان من يرجع الى هذه الكتابة يلاحظ أنها كانت بادئة وانها لم تتطور بالسرعة التى تطورت بهـــا الكتابة السياسية .. وهو يعنى انها لم تنحرف كما انحرفت غيرها من صور الكتابة .. ويقرر الأستاذ أحمد أمين فى فجر الاسلام أن القصص قد نما فى العصر الأموى بسرعة لأنـــه يتفق مع ميول العامة .. والعامة هنا تعنى بطبيعة الحال غير الملوك والوزراء وكتاب الدواوين ، أى كل الناس ..

* * *

فى نفس العصر الذى ظهرت فيه الكتابة الديوانية وتطورت الى أن تصل الى صورتها المتكاملة عند عبدالحميد وأستاذه سالم نجد حركة أخرى قد سبقتها الى الظهور ، تلك هى حركة التأليف القصصى الروائى أو اذا ما أسميناها بالاسم الذى عرفت به فهى حركة التـــدوين التاريخى . ولو أن حركة التدوين قد اشتدت فى العصر العبـــاسى الا أن بدايات لهـــا قد ظهرت فى العصر الاموى . فابن النديم فى الفهرست يذكر أن زياد بن أبيه المتوفى عام ٥٣ هـ قد ألف كتابا فى مثـــالب العرب ، وذكر المؤرخون كتابا لدغفل النسابة البكرى المتوفى فى عام ٦٠ هـ اسمه التظافر والتناصر ، كما يذكر ابن سعد فى طبقاته أن عبد الله بن عباس المتوفى عام ٦٨ هـ كانت له مدونات كثيرة تظهر لنا صورة منها فى الكتب المتأخرة ككتاب التيجان لوهب بن منبه الذى ينقل عنه روايات حول ذى القرنين .. ولعبيد بن شرية الجرهمى المتوفى عام ٧٠ هـ تقريبا كتاب فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها .. يقول عنه الدكتور حسين نصار فى كتابه « نشأة التدوين التاريخى عند العرب » « هو ملحمة من أجمل الملاحم العربية النثرية التى تتناول تاريخ العرب الجنوبيين ويلعب فيها الخيال دورا كبيرا ؛ ويحليها الشعر والقطع النثرية الأرجوانية ـــ اى المعتنى بها ـــ والقصص الاسرائيلية المأخوذة من التوراة وأخبار الاسرائيليين . ملحمة تشبه الملاحم التى ستظهر فى العصور الاسلامية المتأخرة من أمثال عنترة والظاهر بيبرس والاميرة ذات الهمة . ولكنها تمتاز عنها بسمو أسلوبها ، وفصاحته العربية . ولعلنا لا نشتط

كثيرا حين نقارنها بشاهنامة الفردوسى الشعرية التى تتناول تاريخ الفرس منذ اقدم العصور حتى الفتح الاسلامى ، ويؤسفنا كل الاسف ضياع الجزء الاخير منها » .

فاذا ما تقدمنا قليلا الى عصر عبدالحميد وسالم وجدنا من اصحاب المؤلفات أبان بن عثمان المتوفى عام ١٠٥ هـ مؤلفا فى المغازى ، وعروة بن الزبير المتوفى عام ٩٤ هـ مؤلفا فى التاريخ، ووهب بن منبه المتوفى عام ١١٠ هـ مؤلفا فى سير ملوك اليمن ، ويقول عنه الدكتور حسين نصار فى كتابه السالف الذكر « ولا يختلف كتاب التيجان لوهب كثيرا عن كتاب عبيد بن شرية فى طريقة العرض فهما يطلقان لخيالهما العنان فى تصوير الوقائع. ويلونان الحوادث التاريخية بأطياف خيالية قد تخرج بها الى حد الخيال والاسطورة . كما يدخلان فى تاريخها الكثير من الحوادث التى لا أصل لها ولذلك يصدق عليهما اسم القصصى التاريخى أكثر من أى نعت آخر . ونحن نعدهما امتدادا للحركة القصصية التاريخية التى كانت موجودة فى الجاهلية » .

الذوق العربى

هذه الحركة لم تظهر فجأة ولا نتيجة لحاجة الدولة الرسمية وانما هى بلا شك استمرار لحركة سبقتها فى الجاهلية عنيت بالقصص وحكايات التاريخ والأبطال وحفلت بالموروث من الأساطير العديدة واستمرت أثناء الاسلام ، ثم احتاجها المسلمون حين اتسعت رقعة الدولة وتشابكت صور الحياة وتعقدت ودخل

حياتهم أنباء أجناس أخرى يحملون ثروات أخرى ضخمة من التراث القصصى واحتاجها المسلمون لتثبيت المعانى الدينية وتدوين احداث الرسالة وسيرة الرسول ولتفسير اشارات القـــرآن الكريم الى احداث التاريخ فيما أورد من قصص ..

ويروى المسعودى عن معاوية أنه « كان يستمر الى ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها ، وسياستها لرعيتها ، وغير ذلك من اخبار الامم السالفة ، ثم تأتيه الطرف الغربية من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة ، ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيهـــا سير الملوك وأخبارها ، والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليـــه غلمان مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الاخبار والسير والآثار وأنواع السياسات » .

وهذا النص نريد أن نخرج منـــه بنتيجتين : الاولى أن الذوق العربى كان يميـــل الى هذا اللون من الانتـــاج ، أعنى القصص .. ومعاوية بعد عربى يمثل الذوق العربى الاصيل الذى كان يعنى عناية كبيرة بأحاديث من مضى .. وكتاب دغفل النسابة عبارة عن مجالس وأسمار دارت فى بلاط الخليفة معاوية ... أما كتاب أخبار ملوك اليمن لعبيد بن شرية فيقول عن معاوية «وكانت أفضل لذاته فى آخر عمره المسامرة وأحاديث من مضى ، فقال له عمرو بن العاص لو بعثت الى الجرهمى الذى بالرقة من بقـــايا من مضى فانه أدرك ملوك الجاهلية وهو أعلم من بقى اليـــوم

فى حديث العرب وانسابها ، واوصفه لما مر عليه من تصاريف الدهر . فبعث اليه معاوية فاتى فى محمل بعد ايام كثيرة وشدة شوق من معاوية اليه ، فدخل عليه شيخ كبير السن صحيح البدن ثابت العقل منتبه ذرب اللسان كأنه الجذع فسلم على معاوية بالخلافة فرحب به معاوية وقال له انى اردت اتخاذك مؤدبا لى وسميرا ومقـــوما ، وانا باعث الى اهلك وانقلهم الى جوارى وكن لى سميرا فى ليلى ووزيرا فى امرى » .

ثم يمضى الكتاب يذكر أن الليالى مرت على معاوية وعبيد فى سمر متصل ، وعبيد يروى وأهل ديوان معاوية وكتابه يدونون ومعاوية نفسه يسأل ويستزيد ويناقش ..

ومن قبل ذكرت لك أمر تميم الدارى الذى قص فى مسجد الرسول فى خلافة عمر وخلافة عثمان وهو الذى ذكر للنبى صلى الله عليه وسلم قصة الجساسة والدجال .. ويروون عن على بن أبى طالب أنه طرد القصاص من المسجد باستثناء الحسن البصرى..

وفى كتاب القضـــاة للكندى أن كثيرا من القضـــاة كانوا يعينون قصاصا الى جوار عملهم الاصلى ، فيقول ان أول من قص بمصر سليم بن عتر التجيبى فى سنة ٣٨ هـ وجمع له القضاء الى القصص ثم عزل عن القضاء وأفرد بالقصص .. ومفهوم أن القصاص هنا يجمعون بين رواية الحكايات المأثورة وبين الوعظ الدينى .

والذى اريد أن اخرج به من هذا كله أن الذوق العربى كان

يميل الى هذا اللون من الانتاج ويقبل عليه اقبـــالا شديدا دعا معـــاوية الى تعيين قاص بالمسجد يقص على الناس ما أسماه المقريزى فى خططه بقصص الخاصة تفرقة منه بينه وبين قصص العامة التى كان يجتمع فيها النفر من الناس حول قاص يسمعون اليـــه ..

ووجود هذا اللون من النثر فى عصور الإسلام ا لمبـــكرة ، واعتراف الخلفاء الراشدين به ، وسماحهم بتداوله فى مسجد رسول الله ، الى جوار ما نراه من تذوق معاوية له تذوقا يدفعه الى استقدام القصاص وتدوين ما يقولون واضاعة أكثر الليـــل فى الاستماع اليهم ، كل هذا يدل على أن القصة كانت شيئا فى طبيعة العربى منذ قديم لم يجد ولاة أمره بعد الاسلام الا الاعتراف به واقراره ، ثم العمل علىتوجيهه بما يخدم دعوة الدينالجديد ، او الدعاوى السياسية المختلفة كما سنرى فيما بعد ..

والنتيجة الثانية التى نريد أن نخرج بها من نص المسعودى عن معاوية أن نشأة التدوين لم تتأخر حتى العصر العباسى ، بل نحن نرى معـــاوية فى مطلع العصر الاموى يقرأ له غلمانه دفاتر فيها سير الملوك وأخبارها ، كما نرى فى كتـــاب عبيد أن معاوية كان يأمر أهل ديوانه بتدوين ما يقول .. وهذه الدفاتر **لم تكن بدعا فى هـــذا العصر فلا شك انه كان قبل الاسلام تدوين** • وقد جاء فى سيرة بن هشام أن سويد بن صامت قدم مكة حاجا او معتمرا ، وكان سويد انما يسميه قومه فيهم الكامل لجلده

وشرفه ونسبه .. فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به ، فدعاه الى الله والى الاسلام ، فقال له سويد : فلعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذى معك به ، قال : « مجلة لقمان .. » اى الصحيفة التى فيها حكم لقمان ..

وكان الرسول عليه السلام يتخذ من صحابته كتبه للوحى.. ويروى ابن النديم فى الفهرست انه كان بمدينة (الحديثة) رجل يقال له محمد بن الحسين جماعة للكتب .. « له خزانة لم ار لأحد مثلها كثرة ، تحتوى على قطعة من الكتب العربية والكتب القديمة»، ويمضى ابن النديم يذكر انه راى كتب هذا الرجل فراى فيها مصحفا بخط خالد بن ابى الهياج صاحب على كما راى فيها بخط الامامين الحسن والحسين ..

فالتدوين اذن لم يتأخر كل هذا التأخير الذى حسب مؤرخو النثر وانما هو معروف قبل الاسلام ، وعما دون قبل الاسلام من اخبار وقصص نقل القاصون بعد هذا ، بل ونقل المؤرخون والرواة الى من دونوا .. ويروى ابن خلكان والزبيدى فى طبقاته وكذا الجاحظ فى البيان والتبيين « ان ابا عمرو بن العلاء وقد ولد نحو سنة سبعين للهجرة كانت كتبه التى كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا له الى قريب من السقف ، ثم انه تقرأ اى تنسك فاخرجها او احرقها كلها ، فلما رجع الى علمه الاول لم يكن عنده الا ما حفظه بقلبه ، وكانت عامة اخباره عن اعراب

قد ادركوا الجاهلية » .. ويقول ابن هشام فى الجزء الثانى من السيرة: «وبلغنى أن رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتبا عندهم. فكلما مات رئيس عندهم فأفضت الرياسة الى غيره ، ختم على تلك الكتب خاتما مع الخواتم التى كانت قبله ولم يكسرها » .

والذى نريد أن نقوله أن التدوين لم يكن بدعة تحتاج الى دخول الفرس الى الاسلام ليتعلمها العرب ، وانما هم قد عرفوها قبل أن يدخل الفرس الاسلام،بل قبلأنيعرف العرب الاسلام. الذى جاءنا شاهدا على وجود ما حفظه من الزوال ،ولن يكون الذى جاءنا شاهدا على وجود ما حفظه من الزوال ولن يكون هذا الذى حفظه الا الكتابة . بل لعلنـــا نكتفى بقسم القرآن الكريم (ن . والقلم وما يسطرون) لنريح ونستريح ..

والاغانى يروى لنا صورة جميلة عن العصر الاموى اذ يذكر أن عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله بن صفوان الجمحى ـــ وهو أموى ـــ قد اتخذ بيتا فجعل فيـــه شطرنجات ونردات وقرقات ودفاتر فيها من كل علم ، وجعل فى الجدار أوتادا فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ، ثم جر دفترا فقراه أو بعض ما يلعب به فلعب به ..

والى هـــذا الحد من انتشار الكتب والكتابة بلغ الامر ، فهذه صورة لناد عماده الكتب والقراءة ، ولعله أقرب الى المكتبة العامة منه الى النادى بشكله الذى نعرفه ..

والأستاذ أحمد أمين يذهب فى فجر الاسلام هذا المذهب الذى نذهبه ، فيقرر أن العرب عرفوا التدوين من العصر الاموى أو قبله بكثير ..

والحاحنـــا على هذه النقطة بالذات له سببه ، فأنت ترى معى أن النقاد التفتوا الى النثر الذى عنى بالشكل والزخرفة واخذوا يدرســـونه ويؤرخون لكاتبيه ، بينما هم اهملوا اهمالا كتابا آخرين ونثرا آخر يعاصر هذا النثر الذى نقلوه بل يسبقه بكثير ، أعنى القصص المدونة والمنقولة عن الرواة فى كتب التاريخ والأخبار والطبقات .. وقد حاول الدارسون أن يبرروا هـــذا السلوك بادعاء أن هذا الذى جاءنا منه انما روى بالمعنى لعدم معرفة العرب بالقراءة والتدوين ولهذا فهم يرفضونه . وقد رددنا على هذا بأن اثبتنا بما لا يدع مجالا للشك أن العرب لم يعرفوا الكتابة والتدوين وحسب ، وانما هم قد دونوا بالفعل ومنذ زمن مبكر جدا أساطير وقصص الامم السالفة واخبار ملوك العرب وشعرائهم .. وأكثر من هذا أنهم حافظوا على هـــذا التراث واحلوه المحل الاول من اعتبارهم قبل أن تنشأ دواوين الرسائل واصحابها من ذوى الصنعة الشكلية ..

بل أريد أن اذهب الى أكثر من هـــذا فأقرر أن القصص هى التى حفظت لنا الشعر الجاهلى بصوره المتعددة . ونظرة الى كتاب عبيد بن شرية فى أخبار ملوك اليمن ترينا أن معاوية كان لا يرضى من عبيد قصة الا وهى محلاة بالشعر .. فيذكر

عبيد قصته ويذكر على لسان أبطالها الشعر الذى قالوه ، فاذا اغفل عبيد امر الشعر أسرع معاوية يقول له « سألتك الا تمر بشعر تحفظه فيما قاله أحد الا ذكرته » وكأنما القصة لا تصح عنده الا بالشعر يرد على السنة من يدور عنهم الحديث فيقول له « سألتك ألا شـــددت حديثك ببعض ما قالوا من الشعر ، ولو ثلاثة أبيات » ونفس ما نجده عند عبيد نجده عند وهب بن منبه الذى يذكر لك كل قصـــة مشفوعة بأبيات حتى ولو كان يتحدث عن آدم فهو يورد على لسانه شعرا ! .

وبعض هذا الشعر كما لاحظ الدكتور حسين نصار بحق شعر موضوع على من نسب اليهم لارضاء السامعين ، وكجزء من منهج تأليف القصص عند العرب . والثانى شعر جاء على السنة شعراء حقيقين قد تجده فى دواوينهم..والواقع ان ظاهرة ورود الشعر على السنة أبطال هذه الروايات التـــاريخية انما تؤكد انها وضعت للقصص وليست للتاريخ .. فهذا المنهج نجده واضحا بعـــد ذلك فى الف ليلة وليلة وسيرة عنترة وسيف بن ذى يزن وغيرها . ففى هذه القصص لا يستقيم موقف له قيمته من مواقفها الا ويروى فيه شىء من الشعر ، بل وتلتزم بعض السير كسيرة سيف بن ذى يزن بنظم الأحداث شعرا بعد كل مرحلة من مراحل السيرة المروية نثرا .. وقد دعت هذه الظاهرة الدكتور طه حسين فى كتابه (فى الأدب الجاهلى) الى الشك فى كل ما جاء بالكتب التى اعتمدت على هذه المصادر الاولى من شعر .. والذى نحب أن

نؤكده أن أصحاب هذه الكتب كانوا لا يؤرخون تأريخا حقيقيا . وانما هم كانوا يقدمون قصصا فنيا يقصد منـــه الامتاع الفنى لا الحقيقة العلميةالخالصة فحلوه بالشعركلما وجدوه،والا وضعوا الشعر أن اعجزهم ما جاء على السنة العرب . فهم ان وجدوا شعرا ذكروه ، وبهذا حققوا دون قصد حفظ صور من الشعر الجاهلى . والامر كان يحتاج بعد الى شىء من التحقيق حول ما أوردوه لاخراج ما ألفوا ووضعوا ، واستخراج الشعر العربى الحقيقى مما ذكروه ..

واكاد ازعم لك بعد هذا كله أن هذه الكتب وهذه الروايات المنتشرة فى الكتب هى أقرب الاشياء الى صورة النثر الجاهلى ونثر صـــدر الاســـلام ، من كل ما أوردوا من خطب وسجع ورسائل . فنحن نفهم أن النثر الفنى هو أداة التعبير عن الحيـــاة ، هو أداة ترجمة مشاعر الامة وأحلامها وأمانيها .. ولا يهمنا فى بحثنا هذا ما دمنا نقيمه على هذا الاساس ، توفر الصنعة الفنية أو عدم توفرها .. ولن نفعل كأصحابنا هؤلاء الذين أخـــذوا من هذه الاعمال ما فيهـــا من شعر فدرسوه ، واستخرجوا ما جاء بهـــا من خطب وسجع وأمثال فحفظوه ، وراحوا يستنبطون منه صورا زائفة للنثر ، وهم قد تركوا العمل الاصلى نفسه دون دراسة أو بحث ..

والواقع أن دراستنا لهذا اللون من النثر ينبغى أن تبدأ عنـــد هذه الكتب التى دونت فى صـــدر الدولة الاسلامية فهى

بلا شك صورة للنثر الجاهلى أو هى امتداد طبيعى له .. وهذه الكتب تعتمد كلها على القصة بل هى تقوم اصلا على انها رواية احداث وسير وأخبار ، فلسنا مبالغين اذن ان قلنا ان الفن النثرى الجاهلى الاول كان هو القصة والرواية .. أما ما عدا هذا من صور كالخطابة والسجع فلا تعدو أن تكون استجابة لحاجة مؤقتة من حاجات الحياة ، ودرسها أقرب الى درس اللغة منه الى درس الادب .. والدارسون القدماء حين اعتمدوا على الخطابة فى درس النثر انما كانوا يتناقضون مع أنفسهم ومع دراساتهم كل التناقض . فالخطابة عمل سياسى والرسائل بعد هذا عمل حكومى ديوانى ، وليس من الادب فى شىء كتابة لا تعبر عن نفس صاحبها أو نفس الامة التى ينتسب اليها . والخطابة والكتابة الديوانية أعمال وليست فنا ، أو بتعبير أدق حرفة وصناعة قد تدل على المهارة والحذق ، وقد نلمح فيها الذكاء والابتكار ولكننا لن نكتشف منها جوهر صاحبها وقلبه وعقله جميعا .. وانما هذه الامور لا يكشفها الا النثر الطليق الذى خرج من ضمير الشعب ليعبر عنه ، والذى عاش فى وجدان كاتبه أحلاما وخيالات وأساطير ، ليخرج الى الناس صورة ممتعة لما يحسون ، واستجابة طبيعية لموقفهم من الحياة والمجتمع والكون جميعا ..

وليس من عذر بعد هذا يقف دون دراسة هذا التراث القصصى الذى تبقى لنا فى هذه الكتب ..